

أدوات صناعة الخزف الإسلامي في المغرب الأوسط

(من خلال معروضات المتاحف)

١. خيدّه علي

أستاذ مساعد أ - قسم الآثار -

جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة - 2

ملخص :

تكمن أهمية دراسة أدوات الصناعة الفخارية المحفوظة بالمتاحف الوطنية، الى إبراز شكل الأداة وخصائصها، للتعرف أكثر عن شكل الأواني التي كانت تنتجها اليد الصانعة، وذلك راجع إلى افتقار المتاحف للقطع الكاملة التي تميز أشكال التحف التي تعود إلى العصر الإسلامي الوسيط، ونظرا لغياب هذا الوصف في المصادر والمراجع لم يبق لنا إلا التعرف على شكل الأداة لاستنتاج الشكل الأصلي للأواني والمصنوعات الفخارية، كما أنها تعتبر دليلا قاطعا على محلية الصناعة الفخارية. الكلمات المفتاحية: الأدوات الفخارية، الصناعة، الأساليب الصناعية، المغرب الأوسط

Abstract :

The importance of the study of pottery industry , saved the national museums tools , to highlight the shape of the tool and its characteristics, to learn more about the shape of the pots that were produced by hand manufacturer , This is due to the lack of museums full of pieces that characterize the forms of artifacts dating back to the Islamic era mediator. In the absence of this description in the sources and references we have nothing left but to recognize the shape of the tool to interrogate the original shape of the pots and pottery, It is also considered as conclusive evidence of the local pottery industry.

Key words : pottery tools, Industry, Industrial methods, National museums.

مقدمة :

لاشك أن الباحث الأثري على ظاهرة التخصص الحرفي أثناء فترة العصر الإسلامي الوسيط بالمغرب الأوسط، يدرك تماماً أن هذا الميدان يعاني من غياب المعلومة في المصادر الإخبارية عن حرفة الفخار عامة، ناهيك عما يتعلق بالآلات التي يستعين بها الخزاف في صناعته، وليس ذلك فحسب بل إن ندرة الشواهد المادية يزيد الأمر تعقيدا بحيث يجب الاعتراف صراحة بأنه فيما عدا بعض الأمثلة التي سنستعرضها في هذه الدراسة المتواضعة، فإن جميع المتاحف الجزائرية تخلو من أمثلة أخرى.

وتبرز الأهمية الأثرية لهذه الأدوات بالنسبة لنا في عدة نقاط أهمها:

أنها تمثل دور بالغ الأهمية في تحديد وإثبات محلية الصناعة في الموقع محل الاكتشاف بما لا يدع مجالا للشك.

كما أن بعضها يساعد كثيرا على تحقيق التأريخ النسبي للمجموعات الخزفية.

وتعد الغاية من هذه الدراسة هي تقديم المعطيات المتوفرة حاليا، وإلقاء نظرة تقييمية للوضع الراهن على حقيقته، والوقوف على تشخيص الأسباب الكامنة وراء هذا الخلل الذي أشرنا إليه آنفا، كما نهدف إلى لفت نظر المختصين والمسؤولين على حد سواء للالتفات لهذا الجانب المهم من الصناعة والتحسيس بضرورة تكثيف الجهود والسعي لإيجاد الحلول الكفيلة بملا هذا الفراغ حتى يتسنى لنا إعطاء هذا النوع من الصنائع ما يستحقه من عناية.

وإذا كانت قضية عدم الاطمئنان لتأكيد قيام الصناعة الخزفية في العديد من المواقع الثرية التي كانت تمثل مراكز عمرانية كبرى خلال الفترات الإسلامية، تعد طعن في مستوى تقدم أهاليها وغياب مساهمتهم في مزاوله هذا النشاط ينفي دورهم في تطوير هذه الأدوات والمنتجات على حد سواء، فهل تكفي هذه الشواهد كدلائل يمكن اعتمادها لإثبات محلية الصناعة على مستوى قروي أو جهوي أو إقليمي، وهل يكون ذلك على مدى الزمن الجزئي أم الزمن الوسيط الكلي.

1- تعريف الأداة:

جمعها أدوات⁽¹⁾، وهي تعتبر من المقومات الضرورية للصناعة إذ لا بد لكل صانع من البشر من أداة أو أدوات أو آلة أو آلات⁽²⁾.

1. معروف الرصافي، الآلة والأداة وما يتبعها من الملابس والمرافق والهئات، تحقيق وتعليق: عبد الحميد الرشودي، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، ط1، 2001، ص 17.

2. محمد محمود محمددين، التراث الجغرافي الإسلامي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط3، 1999، ص ص 362، 363.

كما يبين إخوان الصفا الفرق بين الأداة والآلة، فالأداة حسب تفسيرهم هي ما كانت خارجة عن ذات الصانع كفأس النجار، ومطرقة الحداد، وقلم الكاتب، أما الآلة فهي أعضاء الجسم مثل اليد والأصابع والرجل والرأس والعين⁽¹⁾. ويمكن القول أن الأداة أو الآلة هي كل ما يستعين به الصانع في تقويم صنعه. فأما الأدوات التي نحن بصدد استعراضها فهي تساعد الخزاف في الحصول على نتائج دقيقة ومتقنة، وربما كان يتم اقتناء بعضها جاهزة، ونستعرضها في النقاط التالية:

2- أنواع الأدوات المستخدمة من طرف فخاري العصر الوسيط:

في الوقت الذي أغفلت كتب الأخبار الإشارة إلى الآلات التي يستعين بها الخزاف المسلم في صناعته خلال العصور الوسطى، كشفت لنا رسالة أبي القاسم في صناعة الخزف اللثام عن أسماؤها بقدر وافي من التفصيل، فمن خلال استقراء مضمون ترجمة هذه الرسالة يمكن استخراج مجموعة وافرة العدد من الأدوات نذكر منها:

- أدوات استخراج الطين من المقالع ونقله إلى محل العمل.
- أدوات سحق وتفتيت المادة الطينية، والمعادن المستخدمة في صناعة الطلاء كالطاحونة الحجرية والمدقات وغيرها.
- أدوات التصفية والغرلة
- وسائل تحديد الوزن كالمكاييل أو المعايير.
- وسيلة تقدير الوقت، كالساعة لتحديد الزمن وان كانت غير محددة إذا كانت شمسية أو رملية.
- أدوات التشكيل كالعجلة أو غيرها .
- أدوات الزخرفة كالفرشاة المستعملة لإيقاع الكتابة والزخرفة على الأواني، وأدوات أخرى حادة.
- المناخل وأحواض التغطيس وأوعية أخرى مختلفة.
- أفران حرق الفخار والخزف، وأفران تحضير الطلاء.

1. إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، الناسخ: علي بن محمد صادق بن شيخ منصور بن أنور علي، مكتبة جامعة الملك سعود «قسم المخطوطات»، الرقم: 161857742/3، 1254هـ-1838م، الرسالة الثامنة في الصنائع العملية، الورقة 29، عدد الأوراق 45.

- الأدوات الملحقة بالفرن كالمشاجب الفخارية الموجهة لتعليق الأواني داخل الفرن وعزلها عن بعضها البعض⁽¹⁾.

إضافة إلى هذه الرسالة يمكن الاستعانة بأصناف أخرى من الكتب التي ستطرق إليها لاحقاً ومثال ذلك ما ورد عند الألويسي البغدادي في كتابه بلوغ الأدب، الذي يذكر فيه تفاصيل للحرفة وأدواتها نذكر منها وصفه لصناعة اللبن والآجر إذ يقول: اللبن الذي يضرب به، والسابل الذي ينقل عليه، والسميقان والسمقة خشبات يدخلن في السابل... والأطيمة أتون الجدار والقصاع ونحوهما. ويضيف قائلاً: أنه لولا معرفة قدماء العرب بهذه الصناعة لم يستعملوا تلك الأسماء لهذه الأدوات⁽²⁾.

3 - الأدوات الأصلية المحفوظة في المتاحف الوطنية:

أ- أدوات الصناعة⁽³⁾:

- القالب: لم نعثر إلا على مثال واحد محفوظ بالمتحف العمومي الوطني بسطيف (في الخزانة رقم 3 ويحمل رقم الجرد 37 IC)، وهو مصنف كقالب لصناعة المصاييح الزيتية، اكتشف في موقع قلعة بني حماد.

وصنع هذا القالب من مادة مقاومة حجرية ذات لون قشدي، تحمل في جوانبها آثار للحرق⁽⁴⁾، وهو يتخذ شكلاً أفقياً شبه بيضي مجوف يرتكز على قاعدة صماء مرتفعة قليلاً وهو خالي من أي زخرفة أو طلاء.

1. جي دبليو آلن، «رسالة أبي القاسم في صناعة الخزف الإسلامي»، ترجمة محمد بن عبد الرحمن راشد الشبان، في مجلة أدوماتو، قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، العدد 5، يناير، 2002، ص ص 103-119 (وعن الأدوات المستعملة في العصر الحديث أنظر: نذير الزيات، فن الخزف، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، د.ت، ص 18).

2. محمد شكري الألويسي البغدادي، بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب، عنى بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الأثري، ج 3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1304هـ، ص ص 389، 392.

3. من بين أهم أدوات الصناعة هو الدولار هذه الآلة التكنولوجية التي لم نعثر عليها أو على أي جزء من أجزائها في مجموع المعارضات المتحفية الخاصة بالفترة الإسلامية، لكن نذكر أنها صادفتنا عرضاً ونحن نطالع في كتاب أحد الباحثين المهتمين بالفخار المغربي ولا ندرى مدى صحتها، إذ يذكر صاحب الكتاب أنه في سنة 1919م؟ قام أحد الموظفين الفرنسيين قصير القائمة غزير الثقافة - يقصد الفرد بل طبعاً - باكتشاف متميز في باب أعادير، مع مجموعة من الباحثين الشغوفين مثله، إذ أخرج إلى النور آثار ورشة خزفية لم تكن قد شوهدت من قبل، حيث كان هناك دولار ريفي بسيط (Rustique)، وفرن بدائي جداً وبعض الكتل من العجينة الطينية (أنظر: P14, (S.D), André Boukobza, La poterie marocain).

4. توحى آثار هاته الحروق على أنه قد يكون مصباح في حد ذاته، أو ربما أعيد استغلاله كمصباح إضافة إلى وظيفته الأساسية.



المقاسات:

طوله: 12 سم

عرضه: الجهة الكبرى 7 سم

وعرض الجهة اليسرى 4.5 سم

الارتفاع الكلي: 6 سم

وسمكه: 1 سم

صورة (1): قالب من الحجارة
(محفوظ بالمتحف العمومي الوطني بسطيف)

ب- أدوات الزخرفة:

تمثلها ثلاث نماذج من الأختام المخصصة لطبع الزخارف في المرحلة النهائية من التشكيل ومبدأ عمل هذه الآلة كما يصفها ابن خلدون له وجوه في كيفية نقشه والختم به ويقدم لنا مثال عن الخاتم الذي يجعل في الأصبع ومنه تختم إذا لبسه، ويطلق على النهاية والتام⁽¹⁾.

1- النموذج الأول: طابع ختم الفخار الحمادي مؤرخ بالقرن 5/11 م، يذكر الفرد بل (Alfred Bel) أن زميله جورج مارسيس⁽²⁾ (G. Marçais) قد لفت نظره آنذاك إلى وجود

1. عبد الرحمن ابن خلدون، موسوعة العلامة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص277.

2. الحقيقة أن جورج مارسيس قد أدرج رسماً يوضح شكل هذه الأداة في (اللوحة رقم 5 شكل 20) من دون إلحاقه بتعليق أو شرح (أنظر: Alfred Bel, Les poteries et faïences de la qalaa des Beni Hammad xi siècle, contribution à l'étude de la céramique musulmane. Braham, éditeur Rue Garaman Constantine, 1913, (PL.V.n : 20

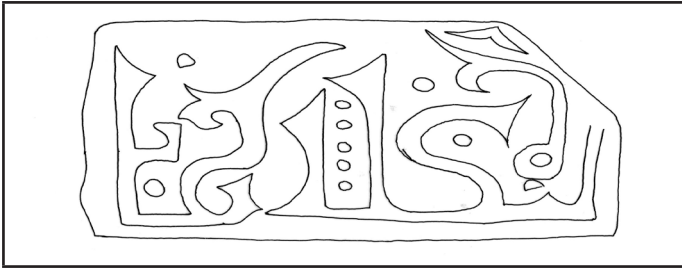
لكن يشير ألفرد بل أن جورج مارسيس يعتقد أن هذا الطابع موجه بالأحرى ليستخدم كختم على الخبز، أكثر من أن يكون موجه للختم على الفخار، وهو لا يؤيده في ذلك، إذ يرى أنه لم يثبت عند المسلمين تنفيذهم زخرفة كتابية للختم على الخبز رغم أنه لا يوجد ما يتعارض مع ذلك في الدين الإسلامي، لكن في المقابل هناك قرائن في تلمسان مطبوعة على مثابات الأبار الفخارية تحمل زخارف كتابية مضامينها (الملك واليمن) (أنظر: Alfred B), un atelier de poteries et faïences au x e siècle de J.C. découvert à Tlemcen, contribution à l'étude de la céramique musulmane, D. Braham, éditeur, Rue Garaman, Constantine, 1914, p28 وفي الواقع أنه كانت لنا فرصة زيارة هذا المتحف بغرض الدراسة في شهر سبتمبر من عام 2013، لكن للأسف سجلنا عدم توفر هذا الطابع ضمن المجموعات المعروضة آنذاك، ولم تسمح لنا الظروف من التأكد إن كان هذا الطابع محفوظاً في مخزن المتحف.

طابع من الفخار، محفوظ بمتحف قسنطينة كان قد اكتشفه بول بلانشي (P.Blanchet) في قلعة بني حماد⁽¹⁾ خلال سنة 1897 م (أنظر الشكل رقم 1)



الشكل (1): يوضح طابع ختم الفخار الحمادي (عن: (Marçais (G)

أما عن مواصفات هذه الأداة، فهي عبارة كتلة واحدة، مصنوعة من الفخار، يتخذ شكلها هيئة قاعدة مستطيلة سمكية نسبيا (كسر جزء من ركنها العلوي الأيمن) صممت على الجهة السفلية المنبسطة لهذه القاعدة زخرفة كتابية بالخط الكوفي المورق نفذت بواسطة الحفر، يمكن قراءة مضمونها بشكل معكوس من اليسار إلى اليمين (لك الكمال)⁽²⁾ أو (ذلك الكمال)⁽³⁾ وتنتهي أطراف حروف هذه العبارة بفصوص على هيئة أوراق نباتية كما تتخلل هذه الحروف دوائر صغيرة (أنظر الشكل رقم 2)



الشكل (2): وجه الخاتم الحامل للزخرفة الكتابية بشكل معكوس (عن: (Alfred (B)

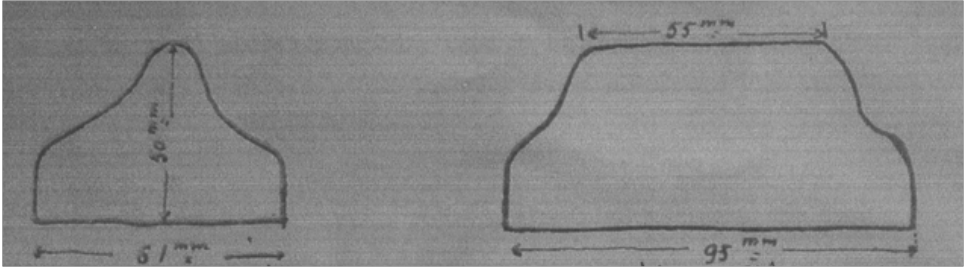
يغطي هذا الوجه الحامل للزخرفة طلاء زجاجي أصفر اللون، من أجل إرجاع سطحه أملس وإكسابه أكثر نعومة، والحد من التصاقه أثناء اتصاله مع المادة اللينة المطبق عليها.

1. Alfred (B), Op_Cit, P. 27.

2. Ibid, P.28.

3. محمد الطاهر، تلمسان عبر العصور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط3، 2007، ص.39.

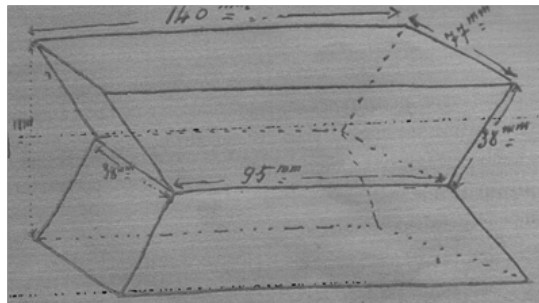
كما ينبثق من الجهة العليا لهذه القاعدة مقبض بارز ذو شكل محدب يمتد أفقياً بموازاة طول المستطيل أعد بصفة ملائمة تسمح بالتحكم في استعماله، مقاسات هذه الأداة كما هو مبين في (الشكل رقم 3)



الشكل (3): مقطعين طولي وعرضي للطابع (عن: Alfred (B)

خطط القاعدة الحاملة للزخرفة (9.5 سم × 6.1 م)، طول المقبض (5.5 سم)، والارتفاع الكلي (5 سم)⁽¹⁾.

2- النموذج الثاني: الطابع الفخاري المزدوج المكتشف بأغادير والمؤرخ بالقرن 5/هـ 11 م. يذكر ألفرد بل أن هذه الأداة عثر عليها من طرف شاب يدعى روبر كورا (Robert cura) دون تحديد لكيفية أو تاريخ الاكتشاف، لكنه يصرح أن هذا الطابع كان دليلاً مباشراً إلى اكتشاف ورشة الخزف بأغادير (تلمسان) سنة 1913 م والتي أثبت تأريخها بالقرن 4/هـ 10 م⁽²⁾، ولا يزال هذا الطابع محفوظاً بمتحف تلمسان وهو في حالة حفظ جيدة مقاساته كما هو مبين في (الشكل رقم 4)



الشكل (4): خطط الطابع الفخاري المزدوج (عن: Alfred(B)

1. Alfred (B), Op_Cit,P.28 .

2. ibid,P.21 .

بينما يرى الطمار أنها ترجع على أكثر تقدير إلى القرن 5/هـ 11 م (أنظر: محمد الطمار، المرجع السابق، ص. 39).

القاعدة الكبرى (14 سم × 7.7 م)، والقاعدة الصغرى (9.5 سم × 3.8 سم)، وطول ضلع الزاوية البارزة (3.8 سم)، أما المسافة بين القاعدتين الكبيرتين (6.1 سم)⁽¹⁾ أما عن صفة هذا الطابع فهو كتلة واحدة صلبة مشكلة من الطين المحروق (الفخار) ذات لون أحمر آجري غير مطلية، ينقصها جزء مكسور في طرفها مثل ما يمكن ملاحظته (في الصورة رقم 2).

لكن الجزء المتبقي يكفي من أجل إعادة وضع تصور دقيق لشكل الأداة الكامل والرسومات البارزة على كل من واجهتيه وهو يتركب من جذعين على هيئة نصف هرمية، متماثلين على نحو ظاهر، طول ضلع كل زاوية بارزة منهما يساوي تقريبا (3.8 سم) يتصلان مع بعضهما من خلال قاعدتيهما الصغيرتين، بشكل مشترك تماما، أما الواجهتان المصقولتان للقاعدتين الكبيرتين الموازيتين لهما، فهما موجهتان طبعاً نحو خارج هذه الكتلة، وتحمل كل واحدة منهما زخرفة بارزة وغائرة مهيأة لتجسيد العنصر الزخرفي الذي سينتج بارزا على السطح المراد تزيينه⁽²⁾.



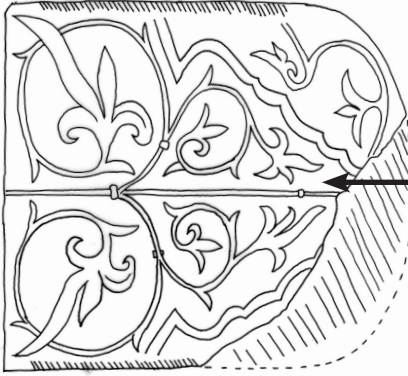
الصورة (2): في الوسط منظر جانبي للطابع وفي الأعلى والأسفل النتيجة المحققة على الجص (محفوظ بمتحف تلمسان)

جاءت العناصر الزخرفية لهذا الطابع على وجهين تتألف في الوجه الأول من سلسلة عقود صغيرة لإكليل من الزهور يحيط بها إطار مستطيل غير قائم الزوايا، تضم سلسلة العقيدات هاته بدورها تفرعات مزدوجة تشكل غصنين رشيقين منبسطين بالتناظر بين اليمين واليسار استنادا على ساق مركزية ممتدة بموازاة القاعدتين الكبيرتين للإطار المستطيل، طول جوانب هذا المستطيل من الناحية الداخلية جاء أقصر في شكل شريط من التهشيريات المنتظمة سمكه (4م)⁽³⁾ (أنظر الصورة رقم (3)، والشكل رقم (5))

1. Alfred (B), Ibid.,P.22.

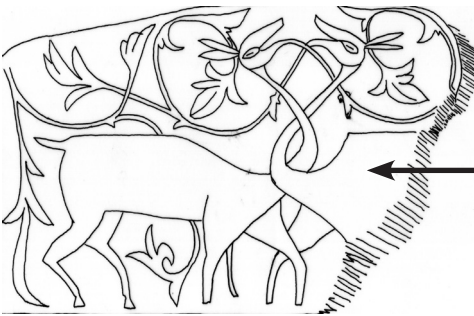
2. Alfred (B),Op-Cit ,P.22.

3. Ibid.,P.23.24.



الصورة (3): وجه الطابع الحامل للزخرفة النباتية (محفوظ بمتحف تلمسان)

أما الوجه الآخر للطابع فيقدم موضوع زخرفي قوامه حيوانين يرجح أنهما غزالتان متشابكتان بعنقيهما، تحمل كل واحدة منهما في فمها غصن من تفرعات نباتية (من نفس صنف النبات المشكل للزخرفة النباتية للوجه السابق) الذي ينبسط برشاقة على ظهر الغزالة الأخرى، كما تظهر تفرعات أخرى من نفس صنف هذه النبتة، تنطلق من الزاويتين العلويتين للإطار المستطيل وينتشر خلف كل من الغزالتين وتمتد كذلك تحت بطنها وفوق أردافها (أنظر الصورة رقم (4)، الشكل (6)).

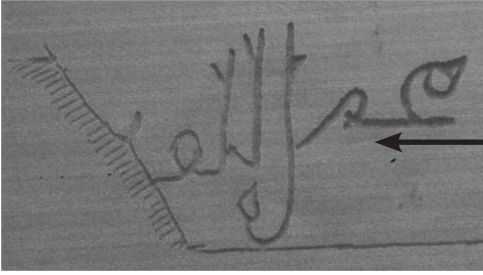


الصورة (4): تمثل وجه الخاتم الحامل للزخرفة الحيوانية (محفوظ بمتحف تلمسان)

الشكل (6): يوضح تفاصيل الزخرفة

حتى الجزء الأيسر هنا يحمل في القاعدة هذه الزخرفة، وإن كان مكسورا غير أنه يمكن التأكيد على أن الزخرفة متناظرة من جانب لآخر استنادا على خط وهمي بالتوازي مع القاعدة الصغرى للإطار المستطيل⁽¹⁾.

كما يلاحظ أن الصانع الذي أنجز هذه الأداة اهتم بالإعلان عن اسمه العربي الذي نحتته بسن حاد على أحد الأوجه الشبه منحرفة، لكن لسوء الحظ أن ما تبقى من هذا الاسم يتضمن كلمة (عمل) ثم لم يتبق إلا (ال) والحرف الأول غير واضح ربما (فاء) أو (قاف) أما تكملة الاسم اختفت مع الجزء المفقود من الأداة⁽²⁾ (أنظر الصورة رقم (5)، والشكل رقم (7)).



الشكل (7): توقيع الصانع
(Alfred B.) عن:

الصورة (5): بقايا توقيع صانع الأداة
(محفوظ بمتحف تلمسان)

3- النموذج الثالث: نشير أن متحف الفن الإسلامي بالجزائر العاصمة يتضمن خاتم برونزي مكتشف بتلمسان وهو مؤرخ بالقرن 6هـ / 12م، للأسف لم نتمكن من أخذ صورة له لكن يمكن إعطاء وصف تقريبي له، إذ يتخذ شكل شريط مستقيم نقش عليه الزخرفة من أحد وجهيه دون الآخر، ينتهي في كلا طرفيه بحدين على هيئة دائرية تسمح بالتحكم في تطبيقه.

ج- أدوات القرن:

إلى جانب الأدوات المذكورة آنفا نضيف هنا تشكيلة من مجموعتين لأدوات التفرين⁽³⁾ التي لا تقل أهمية عن سابقتها في عملية التأريخ، ودالتها القاطعة

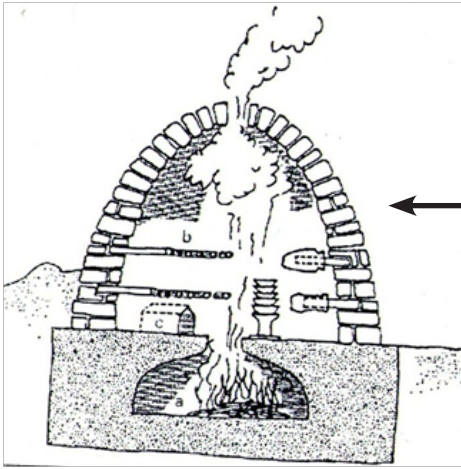
1. Alfred (B), Op-Cit ,P.25.

2. Ibid.,P.22.

3. من خلال معاينة المواقع الأثرية كموقع قلعة بني حماد مثالا يمكن ملاحظة العديد من القطع

على مجاورة الأفران الفخارية، وهو الأمر الذي يدعوا الباحث إلى العناية بها وتسجيلها⁽¹⁾.

1- المجموعة الأولى: مكتشفة بموقع تاقدمت (تيهت)، تمثلها أجزاء من قضبان فخارية اسطوانية الشكل عليها آثار طلاء أخضر، تستخدم كمشاجب إذ يغرس أحد أطرافها في الواجهة الداخلية لجدار الفرن بعمق يسمح بتثبيتها بشكل محكم في حين يبقى طرفها الثاني الأطول بارزا باتجاه جوف غرفة الحرق، لتعلق عليه الأوعية المراد حرقها في وضعيات مختلفة، بغرض عزلها عن بعضها البعض وكذلك لربح المساحة واستغلال الفضاء الداخلي لغرفة الحرق (أنظر الصورة (6)، والشكل (8)).



الشكل (8): يوضح طريقة تثبيت القضبان، وكيفية تعليق الأواني عليها. (عن Marchesi⁴)

الصورة (6): أجزاء من قضبان الفرن موقع تاقدمت (تيهت) (عن: جليد³)

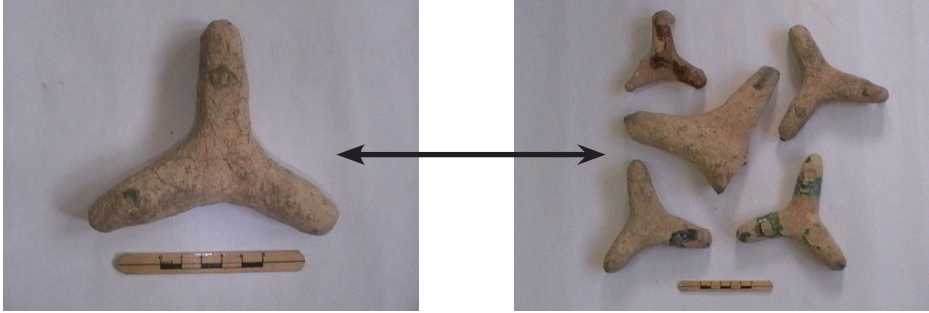
والأجزاء التي تنتمي إلى هذه الفئة من الأدوات، لكن يبدو أن بعض الباحثين لا يعيرونها اهتماما أو بالأحرى لا يفرقها عن أجزاء الأوعية الفخارية الأخرى.

1. Sauvaget (J.), Introduction a l'étude de la céramique musulmane, extrait de la revue des études islamiques, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1966, P.27 et 28.

2. عقيلة جليد، «المراكز الصناعية بالمغرب الأوسط»، في المراكز الصناعية للفخار والخزف بالجزائر في الفترة الإسلامية، تحت إشراف: بواشي نشار خديجة، في التقرير النهائي المقدم ببرنامج البحث الوطني العلمي، 2011-2013 م، ص 9.

3. Marchesi (Henri) et autre, Marseille, les ateliers de potiers du XIII e.s, et le quartier sainte-barbe (Ve-XVIIe s.) edition de la maison des sciences de l'homme, Paris, 1997, PP.353.

2- المجموعة الثانية: محفوظة بمتحف تلمسان، تتضمن حوامل ثلاثية الأرجل منفذة من الفخار بأحجام مختلفة عليها آثار الطلاء وهي تعرف بأرجل الديك، وتستعمل هذه الأدوات كفواصل أثناء رص وترتيب الأوعية الخزفية المطلية منها خاصة، داخل غرفة الحرق لتفادي تشويهها والتصاقها مع بعضها البعض من جهة ولتدعيم توازنها من جهة أخرى⁽¹⁾. (أنظر الصورة رقم (7))



الصورة (7): حوامل فخارية ثلاثية الأرجل (أرجل الديك)
(محفوظة بمتحف تلمسان)

4- مناقشة إشكالية ندرة الأدوات:

من خلال الاطلاع على العرض السابق، الذي جاء نتيجة حملة تحري وتفتيش بيبليوغرافي ومعاينة للرصد المادي المعروض في المتاحف الوطنية الجزائرية، أصبح من الواضح جليا الحجم الذي يعاني منه المشتغل بالآثار المقبل على البحث عن دلائل تلقي أمامه أضواء تنير له السبيل، فما شاع إتباعه في الوقت الراهن لتشكيل صورة تقريبية لصناعة الفخار والخزف الإسلامي بالمغرب الأوسط، يتحتم علينا في أحيان كثيرة الإتيان بأمثلة من مشرق العالم الإسلامي لتوضيح هذه المسألة في مغربه، مع ما يشوب هذا التوجه الاضطراري من مساس بجوهر حرية الإبداع الفكري المحلي.

ففي ظل غياب أعمال الحفر والتنقيب الأثري الممنهج التي بمقدورها تقديم البراهين، نرى أن الحل النظري ليس سهلا ميسورا فالمعلومات عم مجال الصنائع عامة التي من شأنها تقريب الصورة وتوضيح ملامحها متناثرة في العديد من كتب التراث، التي تستدعي التحقيق والتعمق في بطونها، وهي أرضية ما تزال بكر رغم صدور العديد من الأبحاث والدراسات التي استفاد

1. Sauvaget, (S), Op_Cit, P.27.

من بعضها في مجال الصنائع والحرف، كمؤلفات الحسبة⁽¹⁾، وكتب الأدب والشعر⁽²⁾، وكتب الجغرافيا والفلسفة⁽³⁾، وكتب الفقه والفتاوى والنوازل⁽⁴⁾، ونضيف كتب المناقب والطبقات والتراجم وغيرها.

أما من الناحية المادية الملموسة، فإذا ما تعلق الأمر بالأدوات (الدواليب والقوالب)، المصنوعة من المواد العضوية كالخشب وغيره، الأكثر عرضة للتلف بسبب تأثير العوامل الطبيعية والبشرية في آونة الاستعمال، ناهيك عن تقادم العهد الذي نخسه بالدراسة، فذلك أمر وارد ومقبول علميا، لكن ما لا يمكن استساغته وهضمه هو غياب الأدوات المحتمل تصنيعها من مواد صلبة مقاومة لعوادي الزمن كالمعادن والحجارة وحتى الفخار والجص، في إقليم جغرافي شاسع كالمغرب الأوسط وبمجال زمني طويل كالعصر الإسلامي الوسيط.

5- الحل المقترح:

في ظل غياب الشواهد الحقيقية لهذه الأدوات في الفترة الإسلامية، نرى أنه يمكن الاستئناس بمجموعة الأدوات المحفوظة بالمتحف العمومي الوطني سيرتا بقسنطينة، ذات التشكيلة شبه المتكاملة المكتشفة بحي الفخارين بمدينة تيديس الأثرية⁽⁵⁾ هذه الأخيرة التي اشتهرت في العهد القديم بصناعة الفخار، ولا شك أنها كانت تنظم للمشاركة في الأسواق الموسمية التي كانت تقام في سيرتا (قسنطينة)، وتنعقد فيها ملتقيات كبيرة⁽⁶⁾، تسمح لتجار وصناع المناطق المجاورة بالاطلاع على التطورات الصناعية وما يتعلق بتقنياتها⁽⁷⁾، ويتأكد ذلك بوجود مجموعة معتبرة من الأفران والأحواض الخاصة بالفخارين، لكن

1. عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د.ت، هامش الصفحة 104.

2. طيبة صالح الشذر، ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، عبدة غريب، 1998، ص. 461. وما يليها.

3. محمد محمود محمددين، المرجع السابق، ص. 361.

4. أحامدو تال دبالو، الصناعة بالقيروان من خلال مدونة سحنون ونوادر ابن أبي زيد، منشورات وحدة بحث تاريخ القيروان، جامعة الزيتونة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 2007، ص. 17. وما يليها.

5. Berthier (André), Tiddis Cité antique de Numidie, diffusion de Boccard, Paris, P.81.

6. اصطيفان اكصيل، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ج 6، المالك الأهلية حياتها المادية والفكرية والروحية، ترجمة محمد التازي سعود، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة تاريخ المغرب، الرباط، 2007، ص. 70.

7. بالاعتماد على هذه الحقيقة التي تؤكد اطلاع أهل المناطق المجاورة لتيديس على أحوالها الصناعية وتطوراتها من خلال هذه المقتنيات وتشابه بعضها مع الأدوات المكتشفة بقلعة بني حماد والمتمثلة في الدبابيس المعدنية (أنظر رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص. 310، الشكل 3) وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بإمكانية استمرارية توارث هذه التقنيات وأدواتها خاصة إذا علمنا بإعادة استغلال موقع تيديس في الفترة الإسلامية.

لسوء الحظ أن الشواهد الوحيدة الباقية لآلة الدولاب هي الحق (Crapaudines) أي القطعة الحجرية المجوفة التي يرتكز في جوفها محور الدوران العمودي، وقد جمعت من هذه القطع عشرة نماذج، سبعة منها كانت كمن الحجر الرملي الرفيع (الحث grès) وواحدة من الحجر الرملي الغني بالصوان (حش صواني quartzite) واثنين من الجزع (أو عقيق يمان onyx)، وقد حفر في مركزها تجويف قمعي (أنظر اللوحة رقم (1) الصور 8، 9، 10)، يحمل آثار الاحتكاك مع المحور الذي كان يستقر داخله.



الصورة 10



الصورة 9

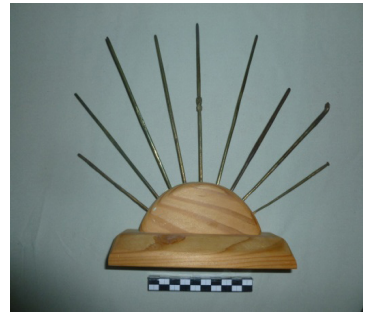


الصورة 8

اللوحة (1): عينات من أجزاء الدولاب الحجرية (الحق)
(محفوظة بمتحف سيرا)

كما قدمت تيديس مجموعة أخرى متنوعة استعملها فخاريو المدينة يقدر مجموعها بحوالي 250 أداة⁽¹⁾.

- المجموعة المعدنية: تشمل أساسا أدوات في شكل ملاعق مفلطحة الشكل (Spatules)، ومزققات في شكل أقلام حادة أو ابر (Styles) تستعمل لتنفيذ الزخرفة.



الصورة (11): عينات من الأدوات المعدنية الحادة المستعملة في الزخرفة
(محفوظة بمتحف سيرا)

1. الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التاريخية، تيديس، قلعة تيديس القديمة، الجزائر، ط 2، 1991، ص 90.

- مجموعة الأدوات الحجرية: تضم شفرات أو نصال (Lames) ومحكات أو مكاشط (Grattoirs)، ومشاحذ أو مسنات (aiguisoirs)، وآلات حجرية للصقل (Lissoirs)، وآلات سحق أو هرس (broyeurs)، وأوعية صمغ (godets).



الصورة (14)



الصورة (13)



الصورة (12)

اللوحة (2): عينات من الأدوات الحجرية
(محفظة بمتحف سيرا)

- أدوات أخرى من الفخار: أدوات مجوفة بشكل برميلي من أجل غرز الأصابع أين يعلوها مقبض لتسهيل إمساكها تعرف بـ (estèques)، إضافة إلى مدقات لسحق الألوان المستعملة في الزخرفة (molettes à décor) وقوالب (moules) وحوامل اسطوانية مستعملة في الحرق، كانت قد جمعت منها أعداد كبيرة، بعضها يحمل ختم وكتابات تمثل توقعات التمييز والمعرفة⁽¹⁾.



الصورة (18)



الصورة (17)



الصورة (16)



الصورة (15)

اللوحة (3): نماذج من الأدوات الفخارية (محفظة بمتحف سيرا)

من أجل الحصول على نتيجة توضح حقيقة تنوع الأدوات التي استعملها الفخاريون المسلمون في العصر الوسيط كما سبقت الإشارة إليه، وبين ندرة الشواهد في إقليم الدراسة

1. الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التاريخية، المرجع السابق، ص. 86 وما يليها (أنظر كذلك اصطيفان اكصيل، المرجع السابق، ص. 70).

وما يشوبه من غموض يفرض علينا كذلك الاعتماد على منهج مقارنة الموروث الذي ما يزال يستعمل نفس الأدوات عن أهل هذه الحرفة.

وكمثال على ذلك نورد هنا مثال عن صناع الأجر والقرميد بإحدى المناطق الجزائرية المشهورة بهذا التخصص الذي يعتبر فرعاً من فروع صناعة الفخار منذ العهد القديم (أنظر اللوحة (4)، الصورة 19، 20).



الصورة (20): قالب القرميد

الصورة (19): قالب الأجر

اللوحة (4): قوالب صناعة الأجر والقرميد التقليدي بميلة (عن: نشار⁽¹⁾)

خلاصة :

-تظهر قيمة هذه الأدوات التي تمثل الخصوصية المحلية الثابتة في صناعة الفخار والخزف من حيث أنها تساعد صناعتها على توفير الاقتصاد في الجهد والوقت وبالتالي تساعد على الزيادة في الإنتاج من خلال التغلب على المشاكل التقنية السيئة والخشنة للصناعة اليدوية، ومن الناحية الأثرية فهي تساهم في تحسين المعارف حول صناعة الخزف الإسلامي في أرض المغرب الأوسط.

-هذه الشواهد رغم قلتها إلا أنها تظهر براعة وتفوق كبيرين سواء في كيفية إنجازها بأشكال بديعة، أو ما تحمله من ذوق فني رفيع في مواضعها الزخرفية بما يثبت مدى فعاليتها.

-كما أنها تسمح بالتعرف على أصناف الحرف الأخرى التي تتقدم وتساعد صناعة الفخار والخزف كالنجارة والحدادة وصناعة الجص، ونحت الحجارة، وهذا ما يؤكد ترسيخ مبدأ التعاون والاشتراك وتبادل المنافع بين فئات الطوائف الحرفية خلال ذلك العهد.

-نعتقد أن مبدأ عمل هذه الأدوات كان يعتبر من أسرار الحرفة، لذلك نرى أن مهمة نشر مخططات تفصيلية لها وتحديد كيفية استعمالها تمثل مادة خصبة للباحثين والمهتمين على حد سواء.

1. خديجة نشار بواشي، «المراكز الفخارية...»، المرجع السابق، ص 39.